

توفاة صالمبو في قرطاج بين الحقيقة الأثرية وإشكالية التفسير

فارس دعاس¹، محمد رشدي جرایة²

1- جامعة الوادي، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية الوادي الجزائر

faresdaas3@gmail.com

2- جامعة الوادي، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

med.rouchdi@gmail.com

الوادي - الجزائر

تاريخ الإرسال: 2019/11/09؛ تاريخ القبول: 2020/03/27

Carthage's Tophet Salammbô between archaeological truth and the problem of interpretation

fares daas, Mohammed Rouchdi Djerraya

Abstract: Tophet Salammbô is one of Carthage's most controversial religious monuments. It is represented by a wide open area surrounded by a mud wall, containing a chapel and an altar with thousands of funerary pottery jars full of children's bones and burned animals and funerary and vowel monuments that held vowel signs. This sacred space has known many archaeological expeditions specialized in material evidence found in the Tophet, especially the jars and the children's bone remains. This milestone has left a wide debate among researchers and historians about its historical reality and the purpose behind its foundation; some see it as just an ordinary children cemetery and some see it as a sacred temple dedicated to practice children sacrificing ritual. The main purpose of this article is not to put an end to this controversy; but to raise questions and amazement after presenting the subject according to previous studies.

Keywords: Tophet; Sacrifice children; Salammbô; Carthage; Punic Period.

فارس دعاس

Almawaqif

faresdaas3@gmail.com

Vol. 16 N°: 04 Décembre : 2020

الملخص:

يندرج هذا المقال ضمن الأبحاث التي تخص تاريخ الأديان، لأن توفاة صالمبو هو من أكثر المعالم الأثرية الدينية إثارة للجدل في قرطاجة القديمة، فهو عبارة عن مساحة واسعة محاط بصور طيني مفتوح على السماء يحتوي على مصلى ومذبح ويضم آلاف الجرار الجنائزية الفخارية المملوءة بعظام الأطفال والحيوانات المحترقة، ويحتوي كذلك على الكثير من الأنصاب الجنائزية والنذرية التي كانت تحمل إشارات نذرية وتضم أسماء وصور الأشخاص والآلهة، وقد حضى هذا الفضاء المقدس بالعديد من البعثات الأثرية التي درست الشواهد المادية التي وجدت في التوفاة خاصة تلك الجرار الجنائزية والبقايا العظمية الخاصة بالأطفال، وخلف هذا المعلم جدلاً واسعاً بين الباحثين والمؤرخين حول حقيقته التاريخية والغرض الأساسي من وراء إنجازه، فهناك من يراه مجرد مقبرة عادية خصصت للأطفال وهناك من يراه معبد مقدس خصص لممارسة طقس التضحية بالأطفال، وليس الغرض الأساسي من هذا المقال هو الخروج بجل من وراء هذا الجدل وإنما الهدف هو إثارة التساؤل والدهشة بعد عرض الظاهرة وفق للدراسات السابقة في هذا الموضوع.

الكلمات المفتاحية: التوفاة؛ التضحية بالأطفال؛ صالمبو؛ قرطاجة؛ الفترة البونية.

مقدمة:

يندرج هذا المقال ضمن الأبحاث والدراسات التي تُعنى بأنثروبولوجية الأديان، ويخص ظاهرة دينية كانت تمارس في قرطاجة القديمة ومازالت

تجلياتها المادية والأثرية شاهدة عليها لحد الآن، ونخص بالذكر توفاة صالمبو الذي يعد من أكثر المعالم الأثرية غموضا وإثارة للجدل في التاريخ القديم لشمال إفريقيا، ليس لاندثار معالمه الأثرية وزواها وإنما لصعوبة التفسير الأثري بشأنه، فبقدر كثرة المنقبين وعلماء الآثار الذين تداول عليه منذ سنة 1921 بقدر ما زاد الجدل والنقاش بينهم حول حقيقة هذا المعلم والغرض الأساسي من وراء إنجازه، وكان السؤال دائما محور النقاش هو : هل توفاة صالمبو هو مقبرة عادية خصصت لدفن الأطفال حديثي الولادة أم أنه معبد خصص لطقوس التضحية بالأطفال على شرف الإلهين تانيت وبعل حامون؟ وهل استطاع الباحثون في هذا المجال التوفيق بين الحقيقة الأثرية وما جاءت به النصوص الأدبية حول ظاهرة التضحية بالأطفال في قرطاج؟

تعريف التوفاة:

وردت كلمة توفاة في أسفار العهد القديم ويقصد به موضع يسمى ﴿حي هُنُوم﴾ موجود بضواحي القدس وهو مكان كانت تُقدم فيه الأضاحي البشرية للآلهة، حيث وردت هذه الكلمة في سفر الملوك الثاني في النص التالي: ﴿وَجَسَّ الْمَلِكُ ثُوفَةَ الَّذِي فِي وَادِي بَنِي هُنُومَ لثَلًا يَحْرِقُ أَحَدًا ابْنَهُ أَوْ ابْنَتَهُ فِي النَّارِ ذَبِيحَةً لِلإِلهِ مُوَلِّكُ﴾ (الكتاب المقدس، سفر الملوك الثاني: 10.23)، ووردت أيضا في سفر إرميا في النص التالي: ﴿وَبَنَوْا مُرْتَفَعَاتِ ثُوفَةَ الَّتِي فِي وَادِي ابْنِ هُنُومَ لِيُحْرِقُوا بَيْنَهُمْ وَبَنَاتِهِمْ بِالنَّارِ، الَّذِي لَمْ أَمُرْ بِهِ وَلَا صَعِدَ عَلَيَّ قَلْبِي﴾ (الكتاب المقدس، سفر إرميا: 31.7)، ووردت الكلمة نفسها في السفر نفسه في

النص التالي: ﴿وَبَنَوْا مُرْتَفَعَاتٍ لِّلْبَعْلِ لِيُحْرِقُوا أَوْلَادَهُمْ بِالنَّارِ مُحْرِقَاتٍ لِّلْبَعْلِ، الَّذِي لَمْ أَوْصَ وَلَا تَكَلَّمْتُ بِهِ وَلَا صَعِدَ عَلَى قَلْبِي. لِذَلِكَ هَا أَيَّامُ تَأْتِي، يَقُولُ الرَّبُّ، وَلَا يُدْعَى بَعْدُ هَذَا الْمَوْضِعُ ثُوفَةً وَلَا وَادِي ابْنِ هُثُومَ، بَلْ وَادِي الْقَتْلِ﴾ (الكتاب المقدس، سفر إرميا: 19. 5-6)، وذكرت في نفس السفر على النحو التالي: ﴿ثُمَّ جَاءَ إِرْمِيَا مِنْ ثُوفَةِ الَّتِي أَرْسَلَهُ الرَّبُّ إِلَيْهِ لِيَتَنَبَّأَ، وَوَقَفَ فِي دَارِ بَيْتِ الرَّبِّ وَقَالَ لِكُلِّ الشَّعْبِ...﴾ (الكتاب المقدس، سفر إرميا: 19. 14).

وردت كلمة أخرى في أسفار العهد القديم لأكثر من مئة مرة وهي كلمة: بامه أو باموت وقد فُسرَت عديد التفسيرات من قبل الباحثين، فمنهم من فسرَها على أنها مقام بدائي على قمة تلة طبيعية أُرْفِقت به الأنصاب وربما المذابح، وهناك من فسرَها على أنها مذبح تقدم فيه الأضاحي، وهناك من قال أنه مكان يرقد فيه الموتى، وهناك من ربطه بالتوفاة الذي تقدم فيه الأضاحي البشرية، إلّا أن هذا الرأي الأخير قد قُوبِلَ بالنقد من بعض الباحثين خاصة وأن الباموت اقترن بالقمة والتوفاة اقترن بالوادي أو الهوة، لتبقى كل من الكلمتين محل شك وغموض وسط الباحثين لحد الآن. (B.A. Nakhai, 1994: 18-20).

يبدو أن المؤرخين الإغريق لم يفهموا الكلمة جيدا وكتبوها دون تمييز وجاءت في أغلب النصوص على الأشكال التالية: » Thephoth, Tapheth, Thoptha «، حيث أنها تُرجمت لتخدم المصطلحات المشتقة من الفعل » daipipto « أي يقع ويسقط (لطيفة التهامي اندش، 2018: 181)، وهناك مصطلحات أخرى تطلق على نفس المكان مثل مصلح

«المحرم» Sanctuaries » وذلك للدلالة على قدسية المكان الذي يثير خوفا ورهبة على كل شخص يقترب منه (4 : C. Gutron)، ويرى الباحث موسكاتي أن أفضل مصطلح يمكن إطلاقه على هذه المعالم هو «محرم التضحية» وذلك لتجنب ذلك الجدل والخلاف بين الباحثين (مولاي محمد جانييف، 1997: 50).

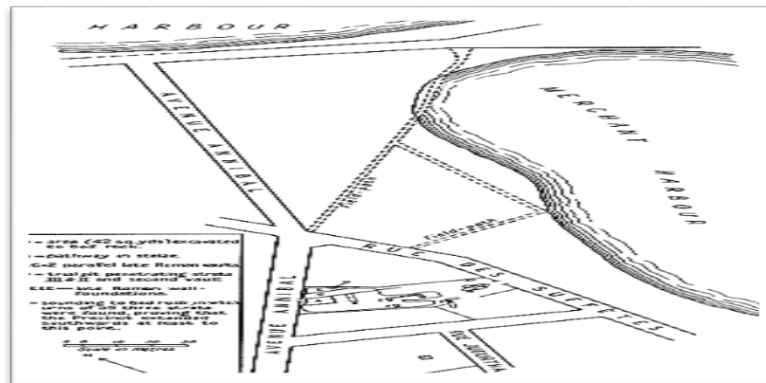
أما معنى كلمة توفاة في الاصطلاح فهو عبارة عن معبد غير مبني يتمثل في مساحات واسعة في شكل فضاءات مقدسة محاطة بجدران حجرية أو طينية، وفي وسطه مصلى ويحتوي على مذبح وأخدود تخرج منه النار وتمارس فيه الطقوس الدينية في الهواء الطلق وتحيط به مجموعة من الجرار الجنائزية المملوءة بالعظام البشرية والحيوانية تعلوها نصب نذرية وجنائزية، تتخذ أشكالا مختلفة إلى جانب العديد من التماثيل والحلي والتماثيل الصغيرة، ومن أشهر التوفات في شمال إفريقيا هو توفاة صالمبو في قرطاج وتوفاة حدرموت (لطيفة التهامي اندش، 2018: 180).

الموقع الجغرافي والطبوغرافي لتوفاة صالمبو في قرطاج:

يقع توفاة صالمبو في القطاع الجنوبي للمدينة القديمة قرطاج وفي الحي المسمى صالمبو ويبعد عن الطرف الغربي للميناء التجاري بحوالي 50 مترا (أنظر الخريطة رقم 1)، وإلى حد الآن لم تتضح كل معالمه الجغرافية مما شكل صعوبة أمام كل من حاول دراسة الموقع طبوغرافيا، وهي نفس الصعوبة التي واجهتهم عند دراسة معالم كل المدينة البونية القديمة خاصة بعد المحرقة التي قام بها الرومان في هذه المدينة في الحرب

البونية الثالثة والتغيرات التي قاموا بها بعد ذلك (: C. Picard, 1990 77)، إلا أن التنقيبات الأثرية قد كشفت جزءا كبيرا منه، فهو محاط بسور صغير مفتوح للسماء ويقع على مقربة من البحر، حيث كشف الباحث الفرنسي سينتاس M. Cintas" في أعماق طبقات التنقيب عن بناء بسيط يتمثل في حجرة منخفضة مغطاة بقبة من الجص مساحتها حوالي 2.20 مترا ذات فناء مربع ومحاطة بممرات على شكل متاهة، وقد عثر في حفرة الأرضية الصخرية للحجرة على العديد من الأواني والأدوات ربما تكون قدمت كندور، ووجد المنقبون على آلاف الأوعية الفخارية المملوءة بالبقايا العظمية البشرية والحيوانية، حيث وضعت هذه الجرار بشكل متلاصق أمام بعضها في حفر ضيقة نسبيا، وعندما ضاق المكان بتلك الأوعية صارت توضع فوق بعضها البعض. (فينفريد إيليغر، 2000: 62)

خريطة رقم 1: توضح موقع توفاة صالمبو



المصدر: (Harden, 1937: 61)

بعد العديد من التنقيبات التي خصت توفاة صالمبو، ميز الباحثون ثلاث طبقات ستراتيجرافية رئيسة مترتبة كرونولوجيا من الأقدم إلى الأحدث على النحو التالي: الطبقة الأولى الأقدم عمقها حوالي 6 أمتار ضمت مواد متفحمة وعددا معتبرا من الجرار الجنائزية وتبدأ من مستهل القرن الثامن إلى بداية القرن السابع ق م، أما الطبقة الثانية فهي الأطول زمنا وقد وجد فيها عدد هائل من الجرار الجنائزية المرفقة بعدد كبير من الأنصاب وتؤرخ من بداية القرن السابع إلى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد، أما الطبقة الثالثة فقد تعرضت لأعمال الدمار والحرق من طرف الرومان وعمقها حوالي مترين ونصف من السطح الحالي وتمتد من نهاية القرن الرابع إلى غاية سنة 146 ق م (D. Harden, 1937: 63).

الدراسات السابقة:

أُكتشف الموقع سنة 1921 وبدأ التنقيب فيه من قبل بعض الباحثين، ومن أشهرهم الباحث «P. Pallary» الذي قدم عديد الملاحظات على الجرار الجنائزية المكتشفة في توفاة صالمبو، وكذلك الباحثين « F. Icard » و « E. Vassel » اللذان قدما عرضا للنقوش النذرية المكتشفة في ذات الموقع، وفي سنة 1925 قامت بعثة أمريكية فرنسية بالتنقيب في جزء من الموقع تحت قيادة الباحث كيلسيتاي « F.W. Kelsety » و تلميذه هاردن (H.B Safar, 1995 : 82) هذا الأخير قام بدراسة الجرار الجنائزية المكتشفة في الموقع ونشر مقاله حول الموقع سنة 1937 (D. Harden, 1937 : 59-90)، وتوقف التنقيب من قبل هذه البعثة سنة 1925 بعد أن نشرت العديد من البحوث والدراسات عن هذا الموقع.

في سنة 1940 عاود النشاط والتنقيب الأثري بموقع توفاة قرطاجة بقيادة الباحث سينتاس الذي نشر العديد من الأبحاث والدراسات التي خصت الموقع، ولعل أهم الأبحاث الأثرية التي خصت توفاة قرطاجة هي تلك التي قامت بها البعثة الأمريكية من سنة 1975 إلى سنة 1980 والتي أجريت تحت إشراف منظمة اليونيسكو (C. Gutron, 2008: 4-6)، وفي الجدول التالي سنقدم أبرز التنقيبات الأثرية التي خصت توفاة قرطاجة منذ سنة 1921.

جدول رقم 1: أهم البعثات الأثرية التي خصت توفاة صالمبو

البعثة	السنة
بعثة الباحث P. Pallary	1921
البعثة الأمريكية الفرنسية	1925
تنقيب الباحث P. Cintas	1940
تقارير الباحث M. Mulier	1952
البعثة الأمريكية	1980-1975

المصدر: (C. Gutron, 2008: 4-6)

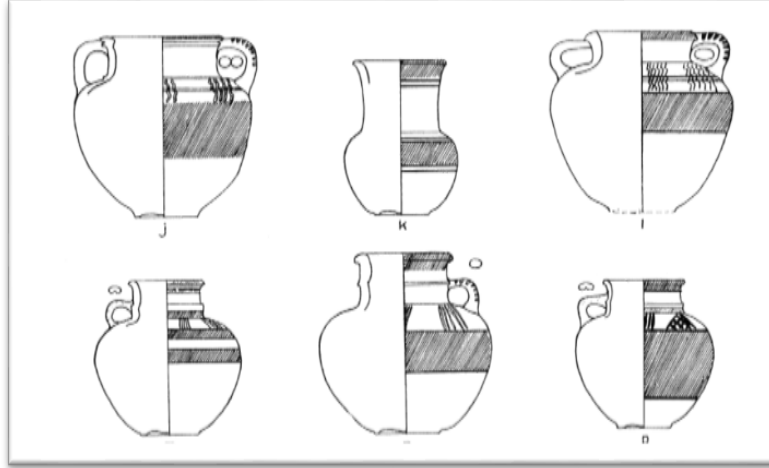
الشواهد المادية:

الجرار الجنائزية:

تعد المادة الفخارية المتمثلة في الجرار الجنائزية أو الأمفورات من أهم الدلائل الأثرية التي تؤرخ لظاهرة التضحية بالأطفال، لأنها ببساطة كانت تستعمل في دفن البقايا العظمية للأطفال أو لحفظ رماد الضحية

التي تعرضت للحرق، حيث وضعت هذه الجرار بشكل متلاصق أمام بعضها البعض في حفر ضيقة نسبيا، وعندما ضاق المكان بتك الأوعية صارت توضع فوق بعضها (فينفريد إليلغر، 2000: 61). وهذه الجرار هي ذات عجينة رقيقة حمراء تغطيها بطانة بيضاء مصقولة ومزينة بأشكال هندسية بسيطة ملونة بالأحمر والأسود ومنها ما تم طليه بدهان أصفر، وفي الغالب كانت تغلق بأغطية مصنوعة من العجينة نفسها، وقد عدد الباحثون أنواع هذه الجرار الجنائزية فمنها المجردة من المقابض ذات القاعدة المنبسطة والعنق الطويل ومنها ذات المقبض الواحد ومنها ذات المقبضين مع اختلافات دقيقة في الشكل والزخارف التي تزينها (أنظر الصورة رقم 1)، وأغلب هذه الأنواع وجدت في الطبقة الأقدم التي تعود إلى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد، وفي الطبقة الستراتيغرافية الثانية وجدت أنواع أخرى إضافة للأنواع الأولى مثل تلك الجرار التي يطلق عليها اسم الأمفورات وهي ذات قاعدة مدببة وفي بعض الأحيان مستوية، والتي كانت تستعمل لتخزين المواد الغذائية كما أن لها وظيفة جنائزية، وهذه الأخيرة كانت صغيرة الحجم ولا يتجاوز طولها 20 سم، وقد عُنيت الأمفورات بزخارف متقنة أفضل من نظيراتها من الجرار الأخرى (D. Harden, 1937 : 80-82).

صورة رقم 1: مختلف أنواع الجرار الجنائزية التي وجدت في توفاة صالمبو



المصدر: (Harden, 1937: 65)

الأنصاب النذرية:

وجدت آلاف الأنصاب النذرية رفقة الجرار الجنائزية في توفاة صالمبو، والتي تضمنت كتابات وأشكال محفورة أو منقوشة على قطع حجرية مدببة أو على أحجار رملية ذوات أصداف أو كما يسميها الباحثون أنصاب المذابح التي تحتوي على مبخرتين، وقد حملت هذه الأنصاب أشكال متعددة مثل الشكل المكعب أو تلك التي جاءت على شكل مسلات من الكلس وتتميز برؤوس مثلثة حادة، وحملت هذه المسلات العديد من الإشارات حول النذور التي كانت تقدم للآلهة، مثل الكلمة

البونية منتنت والتي تعني الأعطية أو المنحة (J. Debergh, 1979: 151).

صورة رقم 2: نصب الكاهن والطفل الذي وجد في توفاة قرطاج



المصدر: (J. Leclant, 1968: 114)

يعد نصب الكاهن والطفل من أشهر الأنصاب التي تعبر على طقس التضحية بالأطفال في توفاة صالمبو، وقد أرخ له في حدود القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، ويصور هذا النصب كاهنا واقفا في وضعية جانبية يضع على رأسه قبعة مستديرة ويلبس ثوبا طويلا ومشدودا بحزام عريض على مستوى الخصر ويحمل بيده اليسرى طفلا صغيرا عاريا الجسم ويده الأخرى مرفوعة نحو الأعلى (أنظر الصورة رقم 2) (J. Leclant, 1968 : 114) ، إلا أن هذا النصب يشوبه نوع من الغموض لغياب أي نص أو كتابة ترافقه وتوضح مضمونه، وكذلك لأنه الوحيد

من هذا النوع في قرطاجة، رغم أنه قد عثر على نصب في توفاة جزيرة صقلية يصور كاهنا وهو يحمل جرة كتلك الجرار التي وجدت في قرطاجة، كل هذه المعطيات تفتح أبواب كثيرة للتفسير والتحليل. البقايا العظمية:

تعد الدراسات التي اهتمت بالبقايا العظمية التي احتوتها الجرار الجنائزية في توفاة قرطاجة من أبرز الأبحاث التي أعطت بعدا آخر لتفسيرات ظاهرة التضحية بالأطفال في قرطاجة، ولعل أهم دراستين عاجلتا هذا الموضوع هي دراسة الباحث ريشارد «Richard.J» لنيل شهادة الدكتوراه في الطب، والدراسة الثانية قامت بها البعثة الأمريكية بقيادة الباحث ستايغر (M.M. Janife, 2012: 75)

قام الباحث ريشارد بدراسة 180 جرة مستخرجة من توفاة قرطاجة وحدرموت وبعد فحصها صنفها على النحو التالي: 88 جرة احتوت كل واحدة منها على عظام بشرية تعود إلى طفل أو طفلين أو أكثر، وعلى 59 جرة احتوت على خليط بين عظام بشرية وعظام حيوانية، و29 جرة احتوت على عظام حيوانية فقط وعلى 4 جرار فقط لم يستطع تشخيص العظام الموجودة فيها لأن درجة حفظها سيئة جدا، وقد توصل هذا الباحث إلى عديد الملاحظات والنتائج، حيث حدد أعمار الأطفال المضحي بهم من خلال دراسة العظام الطويلة ودراسة الأجزاء المتكلسة في الأسنان وجاءت نسب أعمار الأطفال على النحو التالي: الأطفال المولودون قبل الأوان بنسبة 6■، الأطفال المولودون في الأوان بنسبة 74■، الأطفال الموتى بعد بضعة أشهر من لحظة ولادتهم بنسبة 20■،

وقد لاحظ الباحث انخفاض نسبة الحيوانات المضحية بها خلال القرنين السابع والثامن وارتفاعها في القرون الأخيرة، وقد تشكلت في الأساس من بقايا حملان وماعز وبقايا خاصة بطيور برية وقوارض وبعض الحيوانات الصغيرة الأخرى، وقد لاحظ أيضا أن بعض بقايا الحيوانات قد تعرضت للحرق مثلها مثل بقايا الأطفال فيما وجدت بقايا أخرى سليمة وغير متفحمة (مولاي محمد جانيف، 1997: 50-54).

قام الباحث ستايغر بدراسة 130 جرة مستخرجة من توفاة صالمبو، وقد قسمها إلى مجموعتين وفق الطبقات الستراتيغرافية التي وجدت فيها، فالمجموعة الأولى تضم 80 جرة وتؤرخ إلى ما بين القرن السابع والسادس قبل الميلاد، والمجموعة الثانية تضم 50 جرة تعود للقرن الرابع قبل الميلاد، وضمت أغلب هذه الجرار عظام بشرية تعود للأطفال فيما احتوت بعض الجرار عظام حيوانية واحتوى البعض الآخر خليط بين عظام بشرية وحيوانية. وفي الجدول التالي أهم الأرقام التي سجلها الباحث ستايغر:

جدول رقم 2: محتويات الجرار التي قام الباحث ستايغر بدراساتها

التصنيفات	عظام بشرية	عظام الحيوانات	خليط	عدد الجرار
مجموع أ: القرن 7 و 6 ق م	50 جرة 62%	24 جرة 30%	6 جرة 7.5%	80 جرة
مجموعة ب: القرن 4 ق م	44 جرة 88%	5 جرة 10%	2 جرة واحدة 2%	50 جرة

المصدر: (Janife, 2012, pp. 74-75)

قدم ستايغر معطيات أخرى تخص نسب أعمار الأطفال الذين وجدت عظامهم في الجرار الجنائزية، حيث أشار إلى أن 30 جرة من المجموعة أ ضمت كل واحدة منهم بقايا طفل واحد وكانت أعمارهم بين سنة وأربع سنوات وذلك بنسبة 68■، و30■ من جرار نفس المجموعة احتوت على بقايا أطفال ولدوا قبل الأوان وأطفال حديثي الولادة، أما المجموعة الثانية فقد تضمنت 32■ من جرارها بقايا طفلين أو ثلاثة، وقد أثبت الباحث بواسطة المورفولوجيا السنية أن كل طفلين من الثلاث أطفال احتوتهم نفس الجرة هما بالضرورة توأم. (M.M. Janife, 2012: 75).

تظهر بعض الاختلافات الطفيفة بين الدراستين السابقتين خاصة في النسب المقدمة وتطابقها مع الفترات الزمنية التي أرخت لها، لكن من جهة أخرى اتفق الباحثان في العديد من النقاط، ولعل أهمها هو أن أغلب الجرار المكتشفة تحمل عظام أطفال قد تم حرقهم وإزالة اللحم من جثثهم، والأجزاء التي تمت مصادفتها بكثرة هي الأجزاء الصلبة مثل العظام الصدغية وعظيومات الأصابع، فيما اندثرت عظام أخرى مثل عظام الكتف والساق بفعل الحرق، لكن الإشكالية الرئيسة التي واجهت هؤلاء الباحثين ولم يستطيعوا الإجابة عنها هي هل تم حرق هؤلاء الأطفال أحياء أم تم حرقهم وهم أموات؟ (M.M. Janife, 2012: 76-77).

حاولت الباحثة الفرنسية H.B. Safar إعادة تركيب وتصوير ظاهرة حرق الأطفال في توفاة قرطاج من خلال دراسة العظام المحروقة وظاهرة

التكلس فيها، ودراسة الرماد المصاحب لهذه العظام وتحليل كل البقايا المتواجدة على مستوى الجرار الجنائزية، وذلك بالاعتماد على المعطيات التي جاء بها الباحثان السابقان (ستايفر وريشارد) وبعد التصنيف والتحليل توصلت للنقاط التالية (67: 1988, H.B. Safar):

- المادة الأساسية لإشعال النار هي خشب الصنوبر وظهر ذلك في تحليل بقايا الرماد وفسرت ذلك بأن هذا الخشب متواجد بكثرة في قرطاج.

- الطفل الذي يقدم للحرق لا يكون في الغالب عاريا، بل يلف بقطعة من الكتان ويرتدي قلادة أو شيئا من الحلي.

- النار تكون مجهزة منذ مدة حتى تصل إلى درجة حرارة كبيرة لتساعد على الحرق الكلي للطفل.

- يوضع الطفل في النار وفي الغالب يوضع مستلقيا أو منكمشا ويكون مقابلا بوجه أمام النار لان الأجزاء الخلفية للجسم أظهرت مقاومة للتفحم أكثر من الأجزاء الأمامية.

- أكدت الباحثة أن كل الهياكل العظمية تعرضت لنفسظروف الاحتراق، وقد احترقت حالة بحالة وفي بعض الأحيان حالتين مع بعض ولا توجد حالة واحدة تم فيها حرق جماعي.

- يوضع في بعض الأحيان برفقة الطفل حيوان كقند يكون طيرا أو حملا أو ماعزا.

- بعد الاحتراق الكلي تطفأ النار بواسطة حفنة من التراب أو الرمل.

- تجمع البقايا العظمية للأطفال مع الرماد المتبقي وتوضع في جرار جنائزية وتغلق بواسطة مغاليق فخارية وتوضع الجرار في مكانها المناسب (H.B. Safar, 1988: 65-67).

خامسا: إشكالية التفسير:

أثار توفاة قرطاجة جدلا واسعا وسط الباحثين وعلماء الآثار وعلماء الدين والمؤرخين وانقسمت آرائهم بين تيار يرى أنه مجرد مقبرة أو جبانة لدفن الأطفال وتيار آخر يؤكد أنه كان معبدا تقدم في الأضاحي البشرية المتمثلة في الأطفال للآلهة تانيت وبعل حامون ويعطي أدلة وحجج تثبتها، وفي هذه الدراسة سنعرض مختلف التيارات والآراء الواردة في هذا الموضوع.

يعتبر التيار الأول الذي ينفي طقس التضحية أن الكتاب القدامى قد بالغوا في وصف هذه الظاهرة، وأن كلمة توفاة تدل على مقبرة للأطفال الذي توفوا لأسباب طبيعية وقد كرس هذه المقابر للإلهين بعل حامون وتانيت (أحمد السليمانى ونورية أكلي وتوفيق حموم، 2007: 184)، ومن أشهر رواد هذا التيار "S. Moscati، C. Shaeffer، B.H، C. Picard، Safar"، ويعتمد أصحاب هذا التيار على حجة صمت أشهر الكتاب القدامى الذين درسوا قرطاج أمثال هيرودوت وبوليبيوس وتيتوس...الخ، وهي ظاهرة لم يكن لتفوتهم في التشديد عليها بحكم عدائهم لقرطاج وإمكانية استثمار ذلك للتحامل عليهم (الشاذلي بورونية ومحمد طاهر، 1999: 293)، يضاف إلى ذلك أن التحاليل العلمية التي أجريت على البقايا العظمية المكتشفة في توفاة صالمبو

عجزت على تحديد سبب الوفاة، وهل كان الأطفال أحياء أم أموات قبل تعرضهم للحرق؟، كما أن كل النصب التي وجدت في قرطاجة وسوسة وسيرتا لم تحمل أي منها كلمة توفاة (371-387 : R. Dussaud). يشير الباحث كلود شيفر إلى أن النصوص الأدبية التي تكلمت على ظاهرة التضحية بالأطفال لا يوجد ما يؤكد ما ضمن المصادر الأثرية والنقوشية، ويؤكد أنه لا يوجد أطفال قدموا كأضاحي للآلهة (م ل ك) وإنما هم أطفال ولدوا أمواتا أو ماتوا في أسابيع أو أشهر قليلة بعد ولادتهم وقد دفنوا في مقابر خاصة أمام المعابد والأحرام، ويؤيده في هذا الرأي الباحث سباتينو موسكاتي الذي أشار إلى ارتفاع نسبة وفيات الأطفال عند الولادة والأطفال الحديثي السن في المجتمعات القديمة واستدل بالبقايا العظمية التي وجدت في الجرار الجنائزية التي وجدت في قرطاجة، وفسر ظاهرة الحرق بالاعتماد على الميثولوجيا الدينية واعتبره طقسا تطهيريا للطفل الذي يعتبر غير طاهر ولا بد من تطهيره ليصبح مقبولا في المجتمع، واقتبست الباحثة الفرنسية كولين بيكارد أفكار موسكاتي وتكلمت عن النار كمبدأ تطهيري أو تخليصي واستعانة بالرواية التي قدمها جويستان حول الملكة الفينيقية عليسا ديدون التي رمت نفسها في النار لتخلص نفسها من الملك اللوبي الذي أراد أن يتزوجها (مولاي محمد جانييف، 2002: 8-10)، أما الباحثة الفرنسية «B.H. Safar» فقد لاحظت أن قبور الأطفال في قرطاجة كانت قليلة جدا، وافترضت الباحثة على أن المتوفين الجدد كانوا مقصين من مجتمع الأموات وبالتالي لا يدفنون في المقابر التي يدفن فيها العامة، بحكم أنهم

لم يخضعوا للطقوس التي تدمجهم في مجتمع الكبار، ولذلك يتم دفنهم في المعابد بعد حرقهم على أمل أن تهبهم الآلهة حياة جديدة (B.H. 5-9). (Safar, 1981).

يعتقد أصحاب التيار الثاني أن انعدام النصوص البونية التي تشير إلى ظاهرة التضحية بالأطفال لا ينفي وجودها، وأن التوفاة هي معابد بنيت لتقديم الأطفال كقربان بشرية للإلهين تانيت وبعل حامون، على غرار توفاة قرطاجة وحدرموت والمعبد البوني في قسنطينة، ومن أشهر رواد هذا التيار نذكر: A. Berthier، J.G. Février، M. "M.H Fanter، Benabou

استند هؤلاء الباحثون على بعض العبارات التي وجدت منقوشة على الأنصاب في سرتا مثل عبارة ❖ ي ك ن س ل م ❖ التي ترجمها فنطر على أن الناذر قدم ابنه كقربان للآلهة تانيت وبعل حامون، وعبارة ❖ م ل ك أ د م ش ر م ب ت م ❖ التي ترجمها فيفري باستبدال لحم الطفل بلحم الحيوان. (J.G. Fevrier, 1968: 115).

استند أصحاب التيار الثاني الذي يؤكد أن توفاة صالمبو خصص للتضحية بالأطفال للإلهة تانيت وبعل حامون بالنصوص الأدبية الكلاسيكية اليونانية والإغريقية التي أثارت قضية التضحية بالأطفال في قرطاجة، ولهم أهم هذه النصوص هو ما جاء به ديودور الصقلي الذي عاش في القرن الأول قبل الميلاد، ففي معرض حديثه على هزيمة القرطاجيين في حربهم أمام أغاثوكليس السراقوزي قال أن القرطاجيين فسروا هزيمتهم هذه على أنها نتيجة غضب الآلهة التي خدعوها حينما

قدموا لها أطفالا كقرايين كانوا قد اشتروهم خفية من سوق العبيد بعد أن كانوا يضحون له بالنبلاء من أبنائهم، وقد تداركوا الأمر بعد ذلك حين ضحوا بمائتي طفل من أنبل بيوتهم، ووصف ديودور كيفية القيام بالتضحية بالطفل، حيث أشار إلى تمثال الإله كرونوس المصنوع من البرونز والمنتصب في قرطاجة والذي كانت ذراعه ممدودتين في اتجاه مائل فيما كانت راحتا يديه موجهتين إلى الأعلى بطريقة تجعل الطفل المضحي به يتدحرج على ذراعي التمثال ليسقط وسط حفرة ممتلئة بالنيران أسفل منه ليتلاشى في ثوان (Diodore de Sicile, 1834, XX : 14.4-6).

يصف بلوتارخ الذي عاش في القرن الأول ميلادي ظاهرة التضحية بالأطفال في قرطاجة قائلا : « ..وهم أنفسهم (يقصد القرطاجيين) يضحون بأطفالهم، أما الذين لا أطفال لهم فيشترون أولادا صغارا من فقراء الناس ويقطعون أعناقهم كما لو كانوا حملانا كثيرة أو طيور صغيرة، وأثناء ذلك تقف الأم أمام هذا المشهد دون أن تسيل لها دموع واحدة، وفي حالة أنها انهارت وبرز بكائها فعليها أن تعوض ذلك بدفع النقود، ومع ذلك فإن ابنها يضحي به أمام العديد من الأصوات الصاخبة التي تصدرها المزامير والطبول، بحيث لا يسمع الناس نحيب الأولياء.. » (Plutarque, 1918, II : 13.14).

يعتبر المؤرخ الروماني ترتوليان « Tertullien » الذي عاش في القرن الثاني ميلادي من أبناء الكنيسة المسيحية في إفريقيا الرومانية، وقد تكلم هو الآخر عن ظاهرة التضحية بالأطفال في إفريقيا قائلا : « في إفريقيا جرت العادة أن يضحي بالأطفال إلى ساتورن بشكل علني تماما

حتى حكم الامبرطور تيريوس « Tiberius » الذي أمسك الكهنة أنفسهم وعلى أشجار معبدتهم ذاتها، التي كانوا يقتربون جرائمهم تحت ظلالها، وشنقهم أحياء كما التقدّمات النذرية على الصليبان وقد شهد جنود من بلدي ذلك إذ هم ساهموا في تنفيذ هذا الواجب، نعم مازالت هذه الجريمة تقترب حتى اليوم في سرية تامة .. ﴿ (Tertullian, 1984, IX : 47)، أما القديس أوغسطين فقد تكلم عن ظاهرة التضحية باعتبارها عملا من أعمال الوثنيين، وتكلم أنه قد سمع العديد من حكايات التضحية بالأطفال في قرطاجة لأنه عاش في المدينة ذاتها في القرن الثالث للميلاد (J. Lust, 1991:108).

أكد أصحاب التيار الثاني أن ظاهرة التضحية بالأطفال قد خصت الطبقة الأرستقراطية فقط دون غيرها من الطبقات، وتعتبر طقسا وطنيا تنظمه النخبة الحاكمة، واستدلوا بالأنصاب الجنائزية الموجودة في توفاة قرطاجة التي تحمل أسماء أغلبها ينسب لعائلات النخبة وكبار الشخصيات من القادة العسكريين والشفاط والقضاة والكهنة... الخ، ويضيف أصحاب هذا التيار أن ظاهرة التضحية بالأطفال ترتبط أكثر بقضية المواطنة بحيث تضفي الصفة الشرعية للمواطنين القرطاجين الذين يمارسون هذا الطقس (عبد الرحمان خلفه، 2007-2008:177).

ساند علماء الدين اللاهوتيون فكرة وجود طقس التضحية بالأطفال في قرطاجة، معتمدين في ذلك على إيمانهم التام بالنصوص التي جاءت في أسفار العهد القديم، وفسروا الظاهرة على أن هناك إلهًا يسمى مولوخ كان الكنعانيون يقدمون له أبنائهم كقرايين، وقد نقل الفينيقيون

هذا الطقس معهم عندما هاجروا إلى شمال إفريقيا، وقد فسر البعض منه هذا الطقس على أن الغرض منه هو إطعام الآلهة التي تحتاج إلى طعام مثلها مثل الإنسان الذي يعبدها (مولاي محمد جانييف، 2002: 6).
حاول الباحث ستايغر التوفيق بين التيارين الأول والثاني، وأكد أن التضحية بالأطفال تحمل مظهرين أساسيين: مظهر طقوسي ديني ومظهر آخر سماه: وسيلة التحكم في النمو الديموغرافي، حيث أشار إلى أن الشواهد المادية المتمثلة في الجرار الجنائزية والنصب النذرية تقدم الدليل على صحة ما ورد في أسفار العهد القديم، لكن الظاهرة تحمل حسب رأيه أبعاد اقتصادية واجتماعية مهمة، فقتل الأطفال دون إبداء أي حذر يدل على أن المجتمع لم يكن لديه القدرة على استيعاب الأطفال غير المرغوب فيهم فتخلص منهم بحجة دينية، وضرب العديد من الأمثلة من التاريخ القديم التي كان يحدث فيها مثلما حدث في قرطاج، مثل المجتمع الإسبرطي الذي كان أهله يلقون أبنائهم المشوهين في أمكنة أسموها مواضع العزل (مولاي محمد جانييف، 2002: 15).

فسر بعض الباحثين أمثال فاجنر « C.G Wagner » وألبار « J. Alvar » ظاهرة التضحية بالأطفال بنظرية أسموها « قدرة الاستيعاب » أو كما ورد عندهم في اللغة الإنجليزية « carrying capacity »، حيث استدل أصحاب هذه النظرية بالدوافع التي جعلت الفينيقيين يهاجرون إلى الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، وركزوا على المجال الجغرافي الضيق والمناخ والنمو الديموغرافي المتزايد الذي دفعهم للبحث عن أماكن جديدة للاستيطان، وهو السبب نفسه الذي دفعهم للتضحية بأطفالهم

حيث أن عدم التوازن بين الموارد المتاحة وبين عدد السكان يمثل مؤشرا سلبيا ويخلق حالة من عدم التوازن، والحل الأساسي للخروج من هذا المأزق هو التخلص من الأطفال وقتلهم (مولاي محمد جانيف، 2002: 18-20).

خاتمة:

يبقى الجدل والنقاش بين الباحثين والمؤرخين في موضوع توفاة قرطاجة وظاهرة التضحية بالأطفال قائما إلى حد الآن، لذا فليس الغرض من هذه الدراسة هو تقديم الأجوبة وطرح الحلول بل الهدف منها عرض الظاهرة وتحليلها مع الإشارة إلى اختلاف تجليات المعنى، وفتح باب كبير أمام التساؤل والدهشة حول هذه القضية المثيرة للحيرة، وكل تفسير قُدم في هذا العرض ما هو إلا فرضية أو اقتراح فقط من باحث أو مؤرخ فسر الظاهرة من وجهة نظر ضيقة وقد تعرض رأيه لوابل من النقد والتشكيك، وما وُجد من شواهد مادية في توفاة قرطاجة لم يقدم لنا الدليل الواضح على أن نصوص الكتاب القدامى هي نصوص صحيحة، بل دفعنا للتشكيك فيها وإعادة قراءتها بجذر أكبر، وللخروج من هذا الطرح استعنا بقول المؤرخ التونسي محمد حسين فطر الذي دعا في أحد مقالاته إلى ضرورة فتح الملف للنقاش الواسع يشارك فيه كبار المختصين في هذا المضمار وذلك عن طريق ندوة أو مائدة مستديرة تنظمها إحدى المؤسسات الخاصة أو العامة وذلك للخروج بإجابات وحلول تمسح الغموض واللبس حول القضية. (M.H. Fanter, 1995: 80)

* المراجع:

- إليغر فينغريد،(2000)، قرطاج مدينة البونيين والرومان والمسيحيين، ترجمة عيد مرعي، دمشق، دار الكتاب.
- اندش لطيفة التهامي،(2018)، العقائد الجنائزية في قرطاج 814-146 ق م من أواخر القرن التاسع حتى النصف الثاني من القرن الثاني ق م، مذكرة دكتوراه، جامعة عين شمس، مصر.
- بورونية الشاذلي وطاهر محمد،(1999)، قرطاج البونية تاريخ وحضارة، الإسكندرية، مركز النشر الجامعي.
- جانيف مولاي محمد، «إشكالية التفسير في علن الآثار: ظاهرة التضحية بالأطفال في قرطاج نموذجاً»، دراسات تاريخية، عدد 77-78، جامعة دمشق، 2002، ص-ص 24-3.
- جانيف مولاي محمد،(1997)، التضحية بالأطفال في العالم البوني قرطاج نموذجاً، مذكرة ماجستير، جامعة اليرموك، معهد الآثار والأنثروبولوجيا، جامعة اليرموك، الأردن.
- خلفة عبد الرحمان،(2008-2007)، الديانة الوثنية المغاربية القديمة منذ النشأة إلى سقوط قرطاج 146 ق.م، مذكرة ماجستير، جامعة قسنطينة، الجزائر.
- السلیماني أحمد وأكلي نورية وحموم، توفيق، (2007)، المكنون الحضاري الفينيقي القرطاجي في نوميديا القديمة الكائنة في الجزائر الحالية من خلال الدلالات واللقى والأنصاب النذرية، الجزائر، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954.
- الكتاب المقدس، سفر إرميا.
- الكتاب المقدس، سفر الملوك الثاني.
- Debergh .J, (1979), Bartoloni (Piero). "Le stèle archaïque du Tofet de Carthage", Revue Belge de philologie et d'histoire, tome 57, fasc 1, pp 151-152.

- Diodore de Sicile, (1834), **Bibliothèque Historique**, XX, trad par A.F. Miot, Paris : imprimerie royale.
- Dussaud, R. (1946), "précisions épigraphiques sur les Sacrifices Puniques d'enfants", C R A I, p 371-387.
- Fanter, M.H, (1999), **A propos D'un livre sur Carthage**, Tunis : Ilif.
- Fevrier, J.G. (1968), "les Sacrifices d'enfants", archéologie vivante, vol 1, n° 2, Paris, pp115-118.
- Gutron, C. (2008), "la mémoire de Carthage en chantier les fouilles de tophet Salammbô et la question des Sacrifices d'enfants", l'année du Maghreb, tome 4, pp4-16.
- Harden, D.B. (1937), "The pottery from the precinct of Tanit at Salammbô Carthage", Iraq, vol 4, pp 59-90.
- Janife, M.M. (2012), "les sacrifices d'enfants à Carthage l'hypothèse de L.W. Stager", REEPAL, tome 12, Tunis, pp 73-78 .
- Leclant, J. (1968), "les talismans Égyptiens dans les nécropoles", archéologie vivante, vol 1, n° 2, Paris, pp 95-114.
- Lust, J (1991), "Molek and Apxon", Studia Phoenicia, tom9, pp 193-208.
- Nakhai, B.A. (1994), "what's a Bamah? How sacred space functioned in Ancient Israel", B A R, tome 20, pp 18-29.
- Picard, C. (1990), "les sacrifices MOLK chez les Puniques certitudes hypothèses", Semitica, tome 39, p77-88.
- Plutarque, (1918), **De Superstition**, trad Amyot, II, Paris : éd Janet et Cotelte.
- Safar, H.B (1981), "À propos des ossements humains du tophet de Carthage", rivista di studi Finici, tome 9, pp5-9.
- Safar, H.B (1995), "le fouilles du tophet de Salammbô à Carthage (Première partie)", Antiquité Africaines, tome 31, pp 81-199.
- Safar, H.B. (1988), "su l'incinération des enfants aux tophets de Carthage et de Sousse", revue de l'histoire des religions, tome 205, n 1, pp 57-67.
- Tertullian, (1984), **Apology**, IX, London: Trans by G.H. Rendall, Cambridge ma Harvard University.

للإحالة على هذا المقال:

- فارس دعاس ومحمد رشدي جراية ، (2020)، « توفاة صالمبو في قرطاج بين الحقيقة الأثرية وإشكالية التفسير ». المواقف، المجلد: 16، العدد: 04، ديسمبر 2020، ص.ص 53 - 76.
